# السّلالم الضيّقة والتّين

قصة بقلم
ادوار الخراط

كتل شاهقة من الضوء والصمت المعتم تميل عليه في رذاذ المطر ، وتطبق عليه في آخر المساء . والطريق امامه ، وامامها ، فسيح ، غامض ، يكاد يكون خاليا . امتدادات من عالم مخطط نظيف ، مهجور الان ، تومض فيه اعلانات النيون والبنايات الشاسعة الزجاجية، في العتمة الصيفية الخفيفة المطر .

مد يده يساعدها في النزول من على الرصيف ، عبر بركة صغيرة من الماء . كان حذاؤها مكشوفا ، والشريط الجلدي الرفيع يمر مضغوطا بين ابهام القدم والاصابع المكتنزة القصيرة المبلولة ، وقد تقشر المانيكير الاحمر الباهت على اظافرها . وكانت انحناءة القدم الملوية تبدو له مشتهاة ، مليئة .

كان في استجابتها له ، لحظة واحدة ، نفرة لا نكاد نحس ، كأن وراءها تصميما قديما مستقرا . كانت لها دائما تصميماتها القديمة المستقرة . ولم تمد له يدها . لم تضع ذراعها في ذراعه ، قط ، في الشارع ، خلال الايام الستة في المدينة التي قالت له انها مدينتنا .

قال لنفسه : لم تكن مدينتنا . مدينتنا حلم ليلي ساطع النور ، قديم وخارج عن الزمن ، مقتطع من جدران العالم العتيقة .

كانت قد قالت له ، منذ شهور عديدة ، في ليلتهما الاولى :

ـ بدأت أحس بهذا من عدة اشياء . اولها عندما كنت تضع ذراعك في ذراعي ، وثانيهما ...

كان في البداية عندما يعبران شارعا من الشوارع الكثيرة الغريبة التي عبراها معا ، يجد دفئا ومودة في ذراعها اللدنة القويةالمستسلمة له ، ويحس أمنا نادرا ومتبادلا . ولم يكن في حسه عندئذ الا هذه المتعة الخفية كوهج داخلي هين الثقل .

قال لنفسه ، فيما بعد : الشمس تشرق مرة واحدة . دائما . لا تتكرر .

ينادي الشمس ، حتى الآن ، بلا توقف . بيأس ينكر نفسه ، ويزداد ضراوة ، ويطبق عليه بلا نجدة . ضراوته الان لا تنفضّ .

قال لنفسه : الشمس ، دائما ، لا تجيب .

كانت تلك ليلتهما الاولى في المدينة التي قالت له انها مدينتنا . قالت له اعرف ، هي مدينة كل الناس . كنت اظن انها مدينتنا .

وكان قد جاءها عبر مسافات سحيقة من الالم والقلق والانهاك الروحي . ولم يكن يعرف بعد انها قادمة اليه ـ كالعادة ـ من عالم فيه حرارة التحقق والانتصارات الكثيرة التي تحبها ، وتقول انها بلا دلالة ، وفخامة الامجاد الانيقة المكيفة الهواء . وكان قد قال لها لا آكاد اصدق اننا سنلتقي ، وكانت قد قالت له نعم سنلتقي ما لم تقم حرب عالمية ثالثة او يحدث زلزال او تقع كارثة كونية ، وقالت له ساعدني يا حبيبي في اختيار هدية صغيرة لهذا الصديق العجوز، شخص ممتاز حقاً ، مثال الجنتلمان الكامل ، في السبعين من عمره وقد عرفته أخيرا واحبه جدا ويحبني كثيرا فيما اعتقد ، هل تظن ازرار قميص هدية مناسبة مثلا ، او ... ماذا ؟ هذا محير اختيارهدية لمثل هذا الصديق . فضحك . فقالت له بيقظة وتنبه مفاجيء : لماذا تضحك : قال : لا . ابدا . اضحك على الموقف كله ، نعم ازرار قميص لا باس ، أو آي شيء تحبين ، فانسحبت فجأة الى الداخل ثم انطلقت في تصميم ، قالت يجب ان نناقش التذاكر يا حبيبي اخشى انه ليس لديّ وقت ... وكانت الاصوات حولهما مرتفعة والمكان مزدحما ..

وعندما كان في طريقه اليها ، أخيرا ، كان حس الكارثة لا يفارقه ، لم يكن على يقين من ان العالم كله حقا له أدنى معنى ، كان يخنق بيدين وحشيتين عربدة الفرح الشرس ويتردي على الفور في دمار الترقيب لاسوأ ما يمكن ان يحدث . لن يحدث شيء . كان يدخل عالما صامتا من الوحشة والغربة ، بيوته منخفضة رمادية يسح عليها مطر ضبابي غير محسوس ، وهزات الاتوبيس الضخم تضرب قلبه ضربات متكررة رتيبة مكتومة الوقع . وفي حسه الكارثة . كارثة انه لن يلتقي بها، لن يجدها، لن يعرف ابدا آلا صدمة الرفض والنسيان.

وهما الآن في الشارع ، وهي الان بجانبه ، في المساء الصيفي ، وبعيدة عنه ، تتوفز بحيويتها التي لا تغيض ، وقد ارتدت ثوبها الطويل الاسود الابيض ، وصدرها الخمري في فتحة الثوب الواسعة المستديرة يبدو له غضا ، مضغوطا في راحة ، عليه ندى خفيف من المطر ، لحمه الطري يلمع من حبيبات البلل الدقيقة . ولجت به رغبة في ان يدفن فيه شفتيه ، ووجهه ، قال لها أخشى عليك من هذا المطر ، ثيابك خفيفة فقالت له ضاحكة لا تخش شيئا ، اصبحت لا يؤثر عليّ المطر ولا البرد والدنيا ليست برد .. الجو منعش قال وحذاؤك مفتوح .. قالت لا يهم لا تقلق ومضت تحدثه ، باستمرار ، باستمرار ، عن السوق ، عن المشاهد التي يمران بها عن الاسعار والسياح عن الجو عن كل شيء وآي شيء وفي داخله استمتاع بانبثاقات الذكاء اللماح ولمعان الاتقان الناعم المصقول في الحديث ، وحنق لانه يستشف في نبرتها ايضا لهجة المدرّسة القديمةوالامووالدليلة السياحية معا وتغيظه وتثيره هذه النبرة ويقول لنفسه لعل هذا الدفق من الكلام ليس الا جسرا رقيقا لا قوام له فوق المهاوي الغائرة المظلمة المفتوحة في عمق الروح القلقة والاحساء المنقلبة بالهوى والمضض والاشتهاء والجنون . كان قد قال لها بعد ذلك بيوم او أثنين، بلهجة قاطعة : لا يهمني المعلومات ولا الاحصائيات ولا البيانات ، هذه يحصل المرء عليها من مصادرها ، من الكتب والمكتبات ، يهمني شيء آخر .. وخيل اليها انها اصطدمت فيه بهذه الكبرياء الطفلية ولم ترد ، الا بنظرتها الغريبة الصامتة التي ترفض .. على عكس كلماتها .

وفي ذهنه الآن رواسب ثقيلة لم تنحل ، من الشهور والاسابيع والايام والساعات الاخيرة كأنها ازمان مترامية لا نهاية لها ، من الانتظار والتوجس والانكار واللهفة المجنونة والفرح الذي ينسحق تحت وطأة شك أساس لا ينزاح ، من لحظات الضياع التي عاناها منذ قليل ، اليأس الكامل المطبق عندما افتقدها فلم يجدها ، والقرارات الوحشية الحاسمة التي اتخذها الف مرة ونقضها الف مرة وهو يدور في الشوارع ، واللعنات وموجات المقت والبغض المدمرة والتصميم النهائي ـ في كل مرة نهائي ـ على ان يسقط من يديه كل شيء يسقط الشيء الوحيد الذي له قيمة ومعنى في العالم كله ، الشيء الوحيد الذي يحبه ويريده اكثر من آي شيء في العالم ـ ويعود ، على الفور ومخض الاحتمالات التي لا عداد لها تقذف به في كل ناحية ، وقد فقد الاتجاه مع فقدانه لكل شيء ، ويثقله ارهاق يظن ان لا قبل لانسان به ، ثم صدمه اللقاء المفاجيء ، على غير انتظار ، بعد ان كان كأنما لم يعد يهمه شيء من فرط المرارة، وكأن قلبه الذي مزقته وهدته الطعنات والرضوض لم يعد قادرا على الحس بالفرح ولا بشيء ، امام روعة المفاجأة وظهورها امامه على غير توقع أبدا بينما هو يخطوخطوات القنوط ، جميلة ، غريبة ، ما أجملها ، ما آغربها ، تتدفق كالمعتاد بهذا المزيج من انصاف الاكاذيب وانصاف الحقائق .

في ذهنه الان هذه الطبقات من الطين الاسود الطري يشل احساسه بأولى خطواته في المدينة التي قالت له انها مدينتنا ، قالت له كنت أظن انها مدينتنا .

كان الحذاء في قدميه ضيقا يوجعه ، واحساسه بنفسه غير مريح ، غير مستقر عليه وغير منسجمة معه ووجهه الحليق على عجل والمغسول بماء بارد ، والجو المطر في المساء الصيفي نصف الحار ، والتوفز والقلق يجعل خطواته غير ثابتة ، وأراد ان يخلص فقال لها أن أول شيء سيفعله انه سيشتري جاكتة شمواه رمادي غامقة وبنطلون قطيفة ، على آخر موضة ، قطيفة سوداء مضلعة ثقيلة ، وبلوفر ابيض برقبة ، يجب ان يكون برقبة ، وابيض ناصع البياض . دخل ، لحظة ، في لعبة الكلام . نصف اللعبة هرب ونحد للمضض والثقل والحنق الذي يؤوده ، ونصفها مداعبة لنوايا لا عزم لديه على تحقيقها . فنظرت اليه تلك النظرة الغريبة التي ما زالت تؤرق لياله كأنها أبدية مفتوحة دائما في قلبه ، نظرة الاستغراب ، والبعد ، والتبعيد ، وقالت له : أنت لا أستطيع أن أتصورك .. لا أستطيع ان أراك ببنطلون قطيفة اسود وبلوفر ابيض برقبة .. فضحك وقال كأنه يحكي عن شخص آخر : أنت لا تعرفينني . هل تعرفين انني منذ عشر سنوات في الاسكندرية ايام الصعلكة والعربدة فقاطعته مداعبة : آه هل كانت لك أيام للعربدة .. اعترف .. قال ضاحكا : أبدا .. عربدة بريئة بالطبع عندما كنت افضي اليوم كله والليل كله في الشوارع والمقاهي والسينما كانت هناك قهوة في شارع سعد زغلول اسمها الفريسكادور كنا نقضي فيها تقريبا عمرنا كله ونذهب للسينما مرتين أو ثلاثا على التوالي في يوم واحد ونأخذ معنا في سينما متروزجاجات الويسكي الصغيرة وسجاير الكرافن أيه أو البيكاديللي مع قرطاس ضخم من ام الخلول ونشربفي عتمة السينما ونضحك على مليودراما هوليود ونقزقز ام الخلول ونرمي القشر على جنب في القرطاس المفتوح على البساط الاحمر الضخم ويكاد يضربنا الناس . قالت له لا أصدق انت تخترع بالتأكيد ؟ قال ابدا في هذه الايام كنت امر بالمحنة ... وتردد قليلا قبل ان يقول : المحنة العاطفية التي حدثتك عنها ، ثم انطلق بحرارة : أيام اليأس الكامل وفقدان الايمان بكل شيء وحبوط الحب الذي لم يكن احد في العالم يعرفه ، لماذا يقترن الحب دائما عندي بالمرارة والمعاناة التي لا تطاق . وضحك ايضا ليداري فزعه من الاعتراف بالفاجعة القديمة المتجددة ابدا فهل كان يحس انها تتكرر الآن بكل عنفها وضراوة بطشها ؟ وقال كان عنديقميص حرير أزرق مشجر به نقط وتشكيلات حمراء وصفراء وبيضاء وبنطلون اسود قطيفة ، فعلا،وكان هذا نوعا من التحدي لليأس والظلام واندفاعا نحو الاستهتار واللامبالاة بكل شيء وأساسا الاستهتار بنفسي وبأعز ما كان لديّ . قالت بلهجة بعيدة ، كأنها على مستوى آخر ، جامدة وهادئةومهذبة جدا ، نفس اللهجة التي تتلقى بها كل اعترافاته الحارة الساذجة : لا يمكن ان اصدق ولكن سنشتري لك ، من أجل خاطرك ، البنطلون القطيفة والبلوفر الابيض برقبة ...

فلم يقل لها النوم على الارض الخضراء بالحشائش البرية واستنشاق ريح ترابها المبلول المكتوم وورقة الزهرة الصفراء تملأ عين السماء على سعتها وطعنة النحلة في قلب النعومة المتفتحة مبررة بشكل ما وعدوانية ازيزها تلقى قبولا غائبا لم يقل لها حس التراب الناعم على جسر النيل نغوص فيه باطن القدمين لكي يلقي في كل خطوة الصلابة الهينة التي تقاوم وتستقبل وطء الخطوات الدافئة لم يقل لها صدمات مياه المطر على قماش الجاكتة والقميص المفتوح العنق حتى الجلد الساخن المقشعر وانثيال انهمارات صغيرة منتظمة من الماء والملح على الوجه والصدر في القلب هبوب الريح الممتلئة حيوية وبردا مع عصف الدموع الحارة التي لا امل لها لم يقل لها صرخات الجري على اسفلت الشوارع بين العيون المتوحشة وحرائق الخوف والتمرد وتوتر الجرحى الساقطين بجانب العجلات والجنازير الحديدية التي تقضم الرصيف وحشائش الحدائق العامة والفوهات الضيقة المسددة المنطلقة بفرقعات جافة قصيرة نهائية صرخات الجري على الاحجار البيضاء بين البحر والشارع في قلب الزحمة اللامبالية والسيارات المنطلقة بصمت تحت شمس خريفية هادئة الوقع لم يقل لها تشبث اليدين بكل طوبة وكل نتوء في حائط تتسلخ فوقه الركبتان ويلتصق به الجسم مستنجدا صاعدا بدفعة الجهد المستميت والتطلع الى كروم حسية تحتجز عصيرها المز الداكن وينفجر به جلدها المدور المترب الخمري لم يقل لها موجات البحر الهينة تغرق الحذاء فيمتلىء بالماء ويغوص في الرمل الطري بخطوات أخيرة لا رجعة فيها .

قال لها ذات مرة ، على الغداء ، قرب نهاية الحكاية ـ هل هناك ابدا نهاية للحكاية ؟ ـ وهما يتحدثان حديثا محسوبا مكبوحا كأنهما صديقان غريبان احدهما عن الآخر :

ـ نعم ، النبرة المثلى .. الوسط الذهني .. هذا هو الحل المعقول دائما ، والمنطقي دائما ، والذي يبدو اكثر اقناعا وكأنما لا مفر منه ومن التسليم بصحته .. هذا هو الامر ، ببساطة . لا بد من مواجهته .. الحل الارسطيطالي . انني ارسطيطالي .

قالت له :

ـ نعم .

قال ، باسما ومتهكما بنفسه :

ـ كنت أظن نفسي افلاطونيا على الارجح .

هزت رأسها وهي تتأمله ، بعينيها الخضراوين الفاتحتين ، البعيدتين ليس فيهما الا الصمت الكامل الذي لا يقول شيئا ، أي شيء .

قال :

ـ ليست ديونيزيا .. ؟ كنت اظن نفسي من اتباع ديونيزيوس .

قالت :

ـ أنت ؟ ديونيزيّ ؟

قال :

ـ ولا أفلوطيني حتى ؟

قالت :

ـ لا .. أنت على الاصح ابو اللوي .

ثم اشارت الى رأسها ، اشارة قاطعة نهائية ، وقالت له :

ـ كل شيء عندك يمر من هنا .

قال باسما :

ـ طيب .. خلاص .. ما دمت على اقتناع بهذا .. ما دام كل الناس ، فيما يبدو ، يجمعون على هذا .. ماذا استطيع ان أفعل . ربما كان هذا صحيحا ... يجب ان أسلم اذن وأمري لله .

كانت تتحدث قبلها بقليل عن اصدقاء لها ، كتاب وشعراء، كانوا بالامس يأكلون اكلا لا يصدق ، ويعبون الويسكي بلا توقف . قالت : هؤلاء الشعراء ، كيف يستطيعون هذا ؟ لا أكاد أتصور .. لكنهم هكذا ، فيما افترض ، الشعراء ، ذرية ديونيزيوس .. لم يقل لها ديونيزيوس ؟ لم يقل لها رفرفة ظلال الشجر العتيق الوفير على النوم الصيفي العميق في قلب الظهر المزدحم الذي تجري على حوافه حياة المدينة الغريبة ولا الفزع البهيج بينما ثقل الوجود كله يتأرجح على رقة غصن يهتز منذرا بان ينقصف مرنا ينخفض ثم يرتفع لا ينفصل عن عضل الخشب المتين الوثيق والتراب على الاوراق العالية يسقط بخفة على عرق الجبهة والعينين واليدين النديتين اللزجتين في قبضة الحياة التي تهدد بالهوى الى ارض سحيقة ومتعة الصمود بين الف ثقب في زرقة السماء ورقة الاخشاب الحية والجميز الاخضر المغلق على دسامته النيئة والصرخات التي تهتف في روع وترقب ومتعة بخطر الكارثة لم يقل لها التقلب في الوديان الناعمة والتردي بين احضان موت من المتعة ثم الصعود البطيء ثم السريع ثم الحموم نحو لهفات

جديدة وامواج جديدة مطواعة لها الف ذراع معتصرة والف ساق ملتفة متعانقة وملء قلبي عينان مضيئتان تنقطران محبة شمس الليل الساطعة التي يترافص فيها لهب يلعق أطراف انيل كانه لسان يلعق لبن الحنو النادر المستسلم وطبيب له الجراح القديمة فلم تحرق القلب قط لم يقل ديونيزيوس ؟ ديونيزيوس الويسكي الاسكتلندي وعشاء الاوبرج الباذخ والصالات المكيفة الهواء ، ديونيزيوس الاناقه البرلينية المشتراة بثمن الدم البخس والخساسة الفخمة الالفاظ لم يقل لها ديونيزيوس ؟ أين أنت ؟ ديونيزيوس السكر بخمرة الشهوة السهلة والعاطفية الرخو والقصائد المصقولة ديونيزيوس السائر على اسفلت الشوارع نصف المظلمة نصف المضيئة بنيون الاعلانات والغوانيس المطفأة والصراخ على مسرح الصالة امام أشباه البورجوازيين اشباه المثقفين اشباه التقدميين ، اشباه الناس المتخمين بالخيانة وبدم خرير الكلمات الرخيصة ديونيزيوس الكؤوس المغسولة والصحون الصيني على المفارش المكوية شغل شبرا الخيمة والمضاجعة الملهوفة بعد الرقص على أنين الموسيقى المسجلة التي بهتت يصاحبها خشيش الريكوردر او الراديو أو البيك آب او الاوركسترا الكهربائي الذي يستحسن ان يكون اسمه البلاك كوتس او الفروجز او الشانوار فلا يعني شيئا الاشارة على قماش ساتان ديونيزيوس القاهره وبرلين وموسكو الذي افزع من كل شيء الا من النهم الذي لا قرار له والاكتظاظ بالاكل المصنوع والشرب المصنوع والكلام المصنوع والجنس المصنوع . ديونيزيوس ؟

قالت له :

ـ لا يمكن ان أتصورك ، مثلا تمشي على الارض حافي القدمين ، لمجرد المتعة بالحس بالارض .

فقال لنفسه :

ـ أنا عندها صيغة ، نمط ، نوع ، قالب . هي دائما تقول لي أنت باعتبارك مثقفا ، أنت باعتبارك عاقلا ، منطقيا ، انت باعتبارك ناضجا راشدا ، قال لنفسه من أنا ؟ ما أنا ؟ هل نجحت فعلا ان أحول نفسي الى صيغة وقالب نمطي . وضحك ، هذه المرة ، صامتا .

وخطر في باله ، فيما بعد ، ان في اشارتها الى الديونيزيين نوعا من الاستفزاز له ، من حفزة على ان يكشف عن ذات نفسه ، من حثه على ان يكسر قشرة التابوت الذي يغلف به نفسه . ثم تذكر عينيها وتيقن انها لا نعرف منه الا قشرة التابوت ، وانها محقة ، وانه لا يستطيع ان يلمسها .

قال لنفسه : هذه حكاية أخرى .

كانت قد قالت له ، هامسة ، في الفجر الوحش الاخير ، كانها تحدث نفسها :

ـ لا تعرف كم أحتاج الى الحب . وكم من الحب والمتعة استطيع ان اعطي ...

بل أعرف . لانني أعرف شيئا عن نفسي ..

يا حبيبتي ، ماذا تعرفين عني ، بعد على الرغم من كل شيء ؟ اتعرفين على الاقل مدى هذا الالم ، والوحشة ؟ مدى هذا الحب ؟

بلا مدى . ولا حد . ولا نهاية .

قال لنفسه : متى يسكت صوت الالم ؟ هل تنجاب الوحشة أبدا ؟ وجاءته صرخته نفسها من غور ظلامه : بين ذراعيها ، في عينيها حينما تضيئان . ووجهي على صدرها . عندما نعرف كم أحبها . عندما تقول لي « يا حبيبي » وأعرف انها تعني ما تقول .. وانها تقوله لي .. وحدي .. وان الكلمة عندها لها معناها .

حبيبتي ، لن تعرفي أبدا كم احبك ، كم احتاج الى حبك . احبيبني .. هل تحبينني ؟

الوحشة اصبحت الان كاملة . كانت دائما حتى الان تشوبها عكارة الامل . الان لم يعد أمل . وجه الوحشة المحتوم ينظر الي بعينين لا تطرفان ، لا مخرج عن الرعب الصامت .

رامة .. رامة .. كيف فقدتك ؟ هل فقدتك ؟

ماذا نعرف عن عذاب الاخرين ، حتى لو كنا نحبهم ؟ وانت لا تعرفين .. ماذا اذن ؟ هل نهتمين الهم الذي فيه الغفران ؟ من سوف يطلب مني الغفران عن العذاب ؟ هل أقول اهدر دمي ؟ هل أقول هذا الموت البطيء الخانق اليدين لا ترتفع قبضته أبدا من على عنقي ، ولا تخف ولا تتزاح ، ولا تطبق حتى النهاية حتى تكسر الفقرة الاخيرة من العظم المرضوض ؟

رامة .. أحبك ، وامقت هذا الحب ، واتمنى ـ كطفل ـ ان أموت .

وأرفض أمنيتي الطفلية ، وأقول لنفسي لست طفلا وأقول لن يدمرني هذا الحب ، وهو يدمرني .

لانك لا تحبينني ، ولا اعرف أبدا ماذا يعني الحب عندك .

أعطيت نفسك لي ، نعم ، وصعدنا معا الى ذروة البهجة والتحقق ، وتردينا معا متعانقين عاريين في التراب الى جحيم الحبوط ، وضحكنا معا وبكيت مني ولي كثيرا . وأنا ... وعشت معك أيامك الستة الحزينة المجيدة ولا اعرف .. لا أعرف من أنا عندك .

لم يعد صوت ، وكل ركن في العالم صمت .

قال لنفسه في اضطراب غمرانه : ثم ماذا ؟ ثم ماذا يا أخي ؟ هل لا تحبك .. ليس هذا جديدا ... هذه حكاية كل يوم ، حكاية رثة ، متكررة ، لا جديد فيها وهي شاقة مع ذلك ..

لن يتحطم العالم ... ما معنى ذلك كله ؟ لا شيء ، ببساطة .. ولم يصدق .

كان ميخائيل قد ابرق اليها بميعاد وصوله . وبينما يمضي به الطريق ، وهو مهدور من اللهفة والتخبط بين الاحلام ، والمفارغ ، يصور لنفسه ماذا يفعل اذا لم يجدها في انتظاره ، اذا خذلت ميعاده ، وينتقم لنفسه ولحبه سلفا ألف انتقام ، ويعود فتنتفي عن نفسه المخاوف ، ويراها باسمه ، مرحبة ، تقبل عليه ، بهاء الدنيا ورونقها كله ، تعانقه في المحطة ، صورتها تعاند اليأس . سوف يجدها في المحطة ، في استقباله ، ودقات قلبه المتعب تصعد وتهوي في ايقاع مضطرب ، وهو يحمل حقيبته في كلتا يديه ، مسرعا في طرقات المحطة يظن نفسه لا يتحرك . وجاءته الصدمة الاولى ، خفيفة ولكن منذرة ، تحمل في طيابها التهديد . لم يجدها . والشرطي المهذب على الباب ينظر اليه في ترحيب . وذهب يستطلع الرسائل في لوحة الاعلانات ، تحت حرف الميم ، والياء ، والخاء .. حرفا بعد حرف ، كانه يستقطر حروف اسمه ، واحد بعد واحد ، يتطلب صدى وردا ، ينتظر في غير جدوى صوتا ينبئه انها هنا ، انها في عنوانها ، ـ كانت قد رسمت له خريطة صغيرة ، في مذكرته ، بالعنوان . هناك . منذ زمن يبدو له الان قريبا جدا ، وبعيدا في أغوار ماضي لا عمق له ـ انها في عنوان اخر ، انها تنتظره ، انها ستاتي غدا ، أو بعد غد . لا شيء . ثم يبحث عنها على الباب ، في ردهة الخروج ، عند موقف سيارات الاجرة . لا شيء ..

قالت له ، فيما بعد :

ـ طلبت منهم في المحطة ان يكتبوا لك رسالتي ، اتصلت بهم في التليفون اسأل ، مرتين .. وأخذت حيطتي فطلبت منهم ان يضعوها تحت حرف الميم ، وتحت حرف الياء ، وتحت حرف اللام .. قال لها ، قال لها ، بيأس ، لا يعرف ان كان أي شيء قد حدث فعلا ام لم يحدث :

ـ بحثت عنك ، تحت كل الحروف ، لم اجد شيئا .

قال لنفسه : انت الحرف الاول ، والاخير ..

ثم وصلت به سيارة الاجرة الى العنوان . وقد جاءت اخر لحظة ، واول لحظة .. انه الان هنا . وبصوت جهد ان يكون ثابتا وصدره كله يرفرف في داخله ، بعد ان وضع الحقيبة الثقيلة ، والحقائب الخفيفة ، بسرعة ، على الارض ، سأل عنها . منذ تلك اللحظة خيل اليه ان كل شيء يجري في عالم اخر ، لا يصدق منه

شيئا . الاصوات شديدة الوضوح ، وبعيدة جدا ، من وراء حاجز . الدهشة والانكار ، والنفي ، ولحظة الفقدان التي لا تنتهي . الوجوه التي يحملها الغرباء ، والدوران على العناوين التي يعطيها الغرباء ، لا .. ناسف لا يوجد ، لا ، لا ، لا شيء . جئت متاخرا جدا ، لا ، ناسف، والحقيقة اصبحت ثقيلة جدا، والجو فيه هذا القلق من البرد والحر الرطيب معا ، والسماء الاجنبية غائمة بين شقوق السطوح المنخفضة ، والاعمدة الجليلة الجمال ، ديكور خاو ، والحقيبةالخفيفة توشك ان تفلت من بين يديه ، وجنون صامت مكبوح يغلي في دمه ، ويحس العرق على وجهه . كان معه عنوان اخر ، في بلد اخر ، ورقم تليفون . يسافر الليلة ؟ يتكلم في التليفون يسأل ؟ مريضة ؟ ماذا حدث ؟ ليست هنا ؟ هل عادت ؟ لا ، بل كانت تحذره من طرف خفي انها لن تجيء قط : ما لم تحدث كارثة كونية ، او تقوم الحرب . لم تكن تنوي المجيء قط . واخيرا ، وقد حزم أمره على ان يستسلم بأي ثمن لهذا العنوان الاخير الذي لم يعد هناك غيره والذي يتطوع به رجل غريب ، ويدق الجرس ، ويشير اليه وجه لطيف ان يدفع الباب . وهو يهم بأن يسأل عما اذا .. وفجأة ، في هذا العنوان الذي جاء بالصدفة البحتة ، يسمعها ، هي ، تهتف بصوت خافت :

ـ ها هو ذا .. اخيرا .

وتقبل عليه ، هي ، هي ، في غمار هذا الهوس الذي لا يصدق، ما أجملها ، ما أغرب عينيها ، وما أروع التفاف هذا الجسم الحبيب الذي يعرفه ، ولا يعرفه ، جسمها اللدن الطيع المتوفز هذا الذي يصدمه ، ويجذبه ، كل مرة ، كانها اول مرة ، بسحر لا يقاوم ، بخيوط رقيقة غير مرئية لا تنكسر ابدا . وما أسرع تدفقها بالحديث الذي لا ينتهي كيف انها انتظرته ، كيف تركت عنوانها الجديد في العنوان الاخر ، كيف أكدته مرة ومرة ، كيف سألت هنا وهناك ، كيف اتخذت كل حيطة ، كيف تحدثت الى المحطة بالتليفون ، كيف قضت ليلة في عنوان اخر قريب ، كيف سافرت وعادت ، كيف رأت الطبيب وستراه ، كيف جاءت اليوم بعد الظهر فقط ، بالقطار ، كيف ارسلت اليه رسالة بالاستعلامات ، كيف كانت توشك على القيام للحديث مرة اخرى بالتليفون ، كيف حجزت له غرفة على أي حال ، وكيف هو ، كيف كانت رحلته ؟ كيف كانت على وشك ان تيأس من وصوله البوم ، وأين حقائبك ؟ هذا كل شيء ؟دعني اساعدك .. ساحمل عنك هذه .. خفيفة . لا .. ساحملها .. تعال ..من هنا ..

وهو ما زال بعد في غربة الصدمة ، خطاه تنتقل في أرض موحشة، كانما فقد كل مقدرة على الدهشة او البهجة .

ويصعد السلالم الضيقة ، وراءها ، وهي ترقى الدرجات المتعرجة ، وهو يكاد يتعثر بطرف السجاد الاحمر الكابي ، وظهرها القوي النشط ينحني امامه ، صاعدة ، تنهج ، ثم تهتف ، وتعود اليه ، صدرها يعلو ويهبط يخفق امام عينيه ، وهي تقول : لا ، صعدنا السلالم الخطأ .. ليس من هنا .. جعلتني اخذ الاتجاه الخطأ .. ننزل من هنا ... تعال .

الشوق اليها ، والالم منها ، يخدره ، ويثقل خطاه القلقة المحشودة فجأة بنشاط مفاجيء مكبوت لا يعرف له تصريفا .

قالت له ، فيما بعد ، وهي تتذكر :

ـ كان يبدو عليك انك مرهق ، ومشدود ، وضائع كل الضياع .

وعرف ، بالصدفة ، فيما بعد ، ان رقم التليفون الذي كان عنده مغلوط ، مع انها كررته امامه مرتين ، وهو يكتبه . كانت تطلب الرقم ، مرة ، وكان ثم رقم يتبادل مكانه مع اخر ، وسألها ، وصحح الخطأ حيث لم تعد ضرورة لتصحيحه على أي حال . الخطأ ؟ وعرف ايضا ان العنوان الاخر الذي كان معه ناقص ..

هل كل شيء جاء اذن بالصدفة البحتة ؟ هل كانت تنوي الا تلقاه حقا ؟ كل شيء يشير الى هنا . أيمكن ان تصل به الحيرة الى هذا الحد ؟ هل هي تقبلته ، على علاته ، عندما ظهر على غير انتظار ، كما تتقبل الصدفة ، والامر الواقع ، فقط ؟ واخذته معه ، في مجرى خطاها ، دون تردد ، ما دام قد جاء على أي حال بهذه الصدفة الغريبة ؟أهو حقا عندها مجرد سد ثغرة ، مجرد ظهور . غير مطلوب حقا لكنه اذا كان غير مرفوض تماما فذلك انما يجيء هكذا ، دون الحاح على الطلب او الرفض سواء ؟ أيمكن أن يكون هذا هو الذي حدث ؟ لا يقتنع بشيء ولا بعكسه . ويقلب في ذهنه ، حتى الان ، بلا توقف ، هذيان الحيرة التي لا تنتهي .

حبيبتي ، في داخلي أحملك ، ارضي وسمائي ، مجدي وانكساري ، الى الابد ، وحين نلتقي فلا يعود في اللقاء شرخ الانفصال الدائم نلتقي؟ فلا نعود انا وانت .. لا قبل ولا بعد .. والغد نجمة محرقة لا تفلتها اصابعنا المضمومة ؟

هكذا كانت لحظاته الاولى في المدينة التي قالت له انها مدينتنا..

* * *

عندما صعد اخر السلالم الضيقة ، وفتحت له باب غرفته ، وجد نفسه فجاة ، معها ، وحدهما .

بعد ان وضعت حقيبته على الارض ، وقفت امامه ، بكل مجد حضورها . كانت تنظر اليه بعينين فيهما استطلاع ، وابتسامة خفيفة لا يكاد يراها ، تنتظر . كان في جسمه وروحه حس متوتر من الارهاق الحاد المتيقظ ، وقلق الفرح العصبي . قال لها :

ـ رامة .. رامة . لا استطيع ان اصدق .

ومد يديه يحتضن وجهها بين راحتيه . كانت عيناها ما تزالان تنتظران .

اندفع اليها وكانت بين ذراعيه ، في لحظة واحدة .

واحس ظهرها المستدير وصدرها كله ملء الذراعين اللتين تحيطان بها ، ووجهها تحت شفتيه .

لم يكن العذاب قد غادر جسمه الذي بدأت تسري فيه عصارة ثقيلة جديدة من الراحة ، وتهبط به الى منطقة معتمة .

ـ رامة .. رامة .. لا استطيع ان اصدق .

لم يكن يستطيع ، حتى في هذا الحذر المتوقز الذي يشيعه وجودها معه ، في هذه الدوامة البطيئة من الاختلاط والفوضى الداخلية ، لم يكن يستطيع أن ينسى وهو يقول لنفسه ها هي الان بين ذراعيك ، معك ، وحدك ، ماذا تريد ؟ لم ينس ان كل شيء ربما كان قد جاء بالصدفة البحتة ، انه مقبول ، فقط ، على علاته ، كما تقبل الاشياء التي تأتي هدرا ، ومجانا . لماذا الحب منصهر عنده بمعنى وجود نفسه ؟ وجوده الفيزيقي ، وقامته في العالم ، وموقع قدميه على كل هذه الارض ؟

قالت له : نلتقي بعد دقائق ، سأذهب الى غرفتي . تكون انت قد استرحت قليلا ، وغسلت وجهك .. الى اخره .. لا بد أنك متعب جدا من السفر .

لم يدرك نغمة الحبوط منه ، والصبر عليه ، خفيفة ، خفيفة لا يكاد يحسها ، الا بعد ذلك بأيام واسابيع وشهور ، في هذيان احلامه التي يعود فيها اليه كل حضورها ، صورتها ونظرتها ونبرة صوتها وكلماتها والحس بها ، تعود اليه مرة بعد مرة بعد مرة ، بلا نهاية ، مختلطة بالمرارة التي لا تنحل .

كانت جالسة على السرير الضيق الطويل ، والحقائب الكبيرة والصغيرة مبعثرة ما تزال على الارض وعلى الوسائد وعلى السرير الاخر ، واستندت الى حاجز الخشب الموجة الداكن المصقول، وكانت النافذة ، نصف مغلقة ، عليها ستارة بيضاء ، من وراء وجهها ، تلوح منها ، سقوف غريبة باردة ، واطراف الشجر ، من وراء الزجاج ، خضرة أوراقه اليانعة المتقطعة معلقة بالخشب الاسود بجلده الصلب المشقق .

قال لها : انتظري .. انتظري قليلا .. لم انس

كان في صوته بهجة حقيقية ، وتخفف من العبء ، واقبل على حبيبته . وفتح الحقيبة الصغيرة بلهفة وتعجل واضطراب ، واخرج عروستها الصغيرة الخضراء العينين ، الخضراء الثوب .

قال لها : لم انس .. انظري .. انتظري عينيها .. الا تذكرك بشيء ؟

ووضع العروسة بجانب وجهها ، ونظر اليهما ، جنبا الى جنب . العيناوان الخضراوان الصفراوان اللتان ترددان صحوه وحلمه ، وحياته وموته ، ساطعتين في ظلمته ، دائما مفتوحتين ، دائما مفتقدتين . كان قد سألها مرة ، وهو ينظر الى عينيها ، مسحورا دائما كلما نظر اليهما ، في داخل الفتنة الخاصة التي ليست من هذه الارض ، في داخل الرقية التي يجد نفسه ساقطا فيها ، يهوي بلا ثقل ، الى عمق لن يصل اليه أبدا ، لا أمل له في ان يصطدم بقاع ..

ـ رامة ما لون عينيك ؟

قالت : لونهما يتغير دائما كما يقال لي . عسلي فيما أظن . ولونهما داكن عندما اكون عصبية او قلقة او حزينة . وفي الضوء المتغير تتغيران .. كعيون القطط ...

قال عسلية خضراء صفراء لا ادري .. وبهما اشعة داكنة غريبة .. صادرة من البؤرة الى اطراف الكون ..

قالت : صفراء ؟ لا .. لا أظن .. لا ادري مع ذلك .

قالت له : آوه .. ما أجملها .. حبيبتي عروستي .. اشكرك يا حبيبي .

وهي ترفع العروسة ، امام وجهها ، في النور ، ما احلاها ... وتضمها الى صدرها . وقبلته ، قبلة شكر سريعة .

قال لنفسه ، فيما بعد : ثم نسيت كل شيء عنها ، بعد ذلك ، بقسوة طفلية .

قال : انتظري ، لم افرغ بعد ..

باسما ، مداعبا ، كانما يتشوف قبلة أخرى .

قالت : ماذا ايضا ؟ لا .. ؟

بنفس الاستطلاع والفضول الخفيف ، كانما تستغربه قليلا ، وتتسلى .. وتعجب .

اما هو بالطبع ، فقدكان حتى في تخففه الحقيقي وفرحه النادر، يعطي الامر خطورة ما ، لم تكن هدية بقدر ما كانت رمزا ، دون ان يتضح الامر مع ذلك تماما في نفسه .

فك الورقة الخفية ، وفتح العلبة الطويلة من الورق القوى الداكن اللون ، وأخرج لها اسوره ، وعقدا فيهما تصور حديث النزعة ، وتجريدية في الخط والتصميم ، بلونهما المحروق اللامع الصدىء معا ، ونقوشهما الجريئة . كان يمد يده بالاسوره ، فاعطته ذراعها ، بصمت ، ونظرة تقبل وخضوع ورضى ـ كانها نظرة حب ، ولم يفهم ، لحظة واحدة ثم تذكر ، فاحاط معصمها الذي استسلم له ، بالصفائح الرقيقة ، وشبك طرفي الاسورة ، واحاط عنقها بالعقد ، وضمها الى صدره .

قالت : آه أصبحت تعرف ما أحب .. احب هذه الاشياء العجيبة المزخرفة انا .

قال لها : نعم ..

وعبثت يداها قليلا بالعقد الذي يتدلى على صدرها المليء الوثير ، وامتلا قلبه لها بالشهوة والحنو معا . وتذكر فجاة يوم عيد ميلادها ، عندما اعطاها اسورة فضية . كانت قد اعطته معصمها من قبل . قالت له يومها : البسني الاسورة . ووضعت يدها باستسلام ، على المائدة ، واعتذرت له انها لن تقضى وقتا طويلا معه ، وقالت عندها في البيت اقارب وضيوف ، وتقبل سقطة حلمه في قضاء السهرة معها ، سهرة عيد ميلادها ، بحتفل به معها ، وحدهما ، وفي السيارة المعتمة وهي في طريقها للعودة الى بيتها قالت له اعطني سيجارة العلبة على حجري ، والتقط علبة السجاير من على فخذها ، واضطرب وهو يشعلها لها ، وعندما رجع وجد علبة كبريتها في جيبه مع علبته ، ثم رآها بعد ان نزل من السيارة ، وهي تنعطف الى الشارع الضيق المزدحم ، بعد الكوبري ، وقال لنفسه اذن فقد ذهبت الى صديقها في البيت القديم هؤلاء اقرباؤها وضيوفها وقضى ليلته كما يقضي ليالي طويلة كثيرة ، بين سورات الجنون المكتوم لا تفقد مخالبها ، في كل مرة ، ولانيابها الممزقة حروق تغوص ، كاوية ، الى الداخل ، لا تبرأ ، ولا تزال تعود ، وتعود ، جديدة دائما ، قال لنفسه بابتسامة: لم تبق قطعة غير محترقة ، لم تبق قطعة محترقة .. وضحك ، صامتا ، من الملح الذي يملأ عينيه .

وخيل اليه انها، بحس ما تملكه ، وتمتاز به، ادركت ما بنفسه، فوثبت على السرير وقالت : هيا بنا نخرج .. يجب ان أريك المدينة . ما زال في النهار بقية . ونزلا معا ، لاول مرة ، السلالم الضيقة . وقبل أن يخرجا ابتسمت الفتاة التي في الردهة بوجهها اللطيف ، وحيتها ، وكانت الشوارع هادئة ، صامتة ، وغريبة . وصدره يحمل ، بقوة وتوفز ، كل الاثقال التي تركتها أزمان الالم القديم التي لم تكد تمر بعد .

كانت قد قالت له ، في يوم عيد ميلادها ايضا : انني أجيد فن الكلام ، هذا صحيح . منذ طفولتي اكتشفت ان الكلام يرضي الناس ، ويريحهم . ولكنني من الداخل لا احس شيئا .

وكانت قد قالت له ، مرة : لماذا لا تتحدث .. وانت رجل الكلمات ؟

انت الكلمة الاولى ..

قال لها في غمرات حديثه الداخلي الصامت معها ، تعصف به باستمرار وتمزقه وهو فيما يبدو هادىء المظهر في وسط الناس والعمل والزحمة والاصدقاء والاغراب : أنت تجيدين فن الحديث . ما أروع اجادتك له .. اما أنا فلا اعرف كيف اتكلم .. واذا تكلمت فان اقول شيئا ، حقا . كم من الفنون تجيدين ؟ تجيدين ايضا فن اعطاء الجسد وتحتفظين بقلبك منيعا ، حصينا ، لا يستباح .. ؟ وايضا من الداخل لا تحسين شيئا .. أقوة لا غلاب لها تدفعك ، لا تقاوم ، نحو هذا الاتقان .. ؟ اما انا فلا اطيق هذه الصنعة الباهرة .. اريد بجنون ويأس معا ما وراء الجسد معا . اريدهما معا ، الكلمة ، وحرارة الحب الجسدي وتفتح القلب ، التي وراءها ، معا .. وامام الصنعة المحكمة أموت ، واجمد ، وتنطوي عني موجة الحياة ، وأرقبك، معجبا ومجنونا بالحنق واليأس ، كانني حيوان مظلم في جحر .

قالت له ، مرة : لا تصدق أبدا ما أقول . لا تصدق الا ما افعل .. الافعال المجسدة ، العينية ، الحقيقية .

ماذا تفعلين يا رامة ؟ ماذا تفعلين ؟

أريد ان أصدقك ..

قال لها مرة اخرى ، عندما وصلا اخيرا الى المرحلة التي يمزقان فيها احدهما الاخر بالتعذيب البطيء ، المقصود او غير المقصود: أنا لست عندك الا حدثا عرضيا ، عابرا ، مؤقتا .. مثل الكثير من الاخرين ..

فلم ترد عليه. وتذكر انها قالت له مرة : لا تحاول أبدا ان تجعلني اقيم علاقتنا ..

رامة .. أريد أن اضع ذراعي ، كلتيهما، على كتفيك ، ان احيط بهما عنقك . الحنان الذي لك في قلبي يملأ العالم اريد ان تحملك موجته الرقيقة الساكنة التي يغرق فيها كل شيء . أبدا أن انحني فاقبل وجنتك الناعمة ، ان أضم الى صدري وجهك الباكي ، ان ترتاحي لحظة بين ذراعي وان امحو الالم عن ابتسامتك الجريحة ، أريد ان تجدي معي الا من حيرتك وبحثك ، فلا تعود هناك اسئلة ، يا حبيبتي . عظام الوجه المسفوحة تحت شمس الصمت تحلم ، حلم اليأس ، أن تتمرغ على نعومة وجنتك . الذراعان الملتويتان على فراغ الضلوع المشدودة العطشى الى لدونة نهديك تطلبانك، والعمود الصلب المتوتر بارادة ان يغوص في عتمة الدفء المخضل المرتعش ، امواج الحنو والوجد الثقيلة ترتطم مياهها الحالكة السواد بالصخر وتمتلىء، وتتضخم محبوسة تفيض وتتخبط في حفرة الظلام المسدود ، شفتاي طال بهما الجفاف ، يشق فيهما الملح خطوطه والشوق المحرق الى ندي

شفتيك وعسل لسانك . عيناي تريان رؤيا : لم تحدث ابدا ، لم تحدث ابدا ، مثل سبحات الهذيان : في عينيك تقبلانني بلا تساؤل ، بلا تحفظ ، بلا استطلاع ولا استغراب ، بلا رفض ولا جمود ، بلا يأس . رؤيا ليست من هذا العالم .. ان في عينيك لي الحب والمعرفة .. وشفتاي عندئذ تعتصران العنب المتوتر الذي ينبض مليئا بعصارته من نبيذ الجسد المخبوء ، وجهي يلتصق بضغط رقيق متطلب في العجين الناعم ، وتحت اصابعي الممدودة التي تحتوي العالم كله اعمدة المجد المستلقية على التربة السمراء ، وعيناي مغمضتان مدفونتين في القباب المستديرة اللدنة ، أنشق رائحة الخصوبة الاولية ، واعرف بطرف لسان مكهرب طعم مذاقها الحريف العذب معا ووجهي في دغلات النباتات المبتلة بمياه النهر ، يهاجمني عطرها الوحشي ،شفتاي لهما حياة بدائية في غابات الجسد ، تستطلع وتتراجع وتهجم وتقضموتمتص المياه الدسمة ، تحف بهما خشونة العشب الندي ، وتصرخ استجابة لصرخات هاربة في نشوة المطاردة بالحياة ، ثم ياتي التوتر الذي لا يحتمل والدفعة النهائية . نحو الغياب الاخير والطعنة في جرح العالم الطري المفتوح الذي يريد ان يموت ، ورقصة التضحية الاخيرة حيث لم تعد هناك مطاردة ولا طريدة ، لم يعد قربان ولا ضحية ، بل اشتعال الوهج الباهر وسط الموسيقى الساطعة من التحقيق واليقين وانفجار الكون وانبثاق شلالات النجوم وتدهور الشموس المحترقة في قلب ظلام السماء ، وانا اقبِّل العنق المجزور ، بشفتين راضيتين ومؤلمتين ، واضم بين يدي الراس المذبوح ، يتقطر من فمي الخمر والدم معا ، وامسح شفتي في غدائر الاغصان المهتزة المتهدلة بشعرها الساقط على عيني .

كان ميخائيل قد تركها ، بعد ليلتها الاولى في مدينتهما ، وقد شبع فيها جانب من جوعها المعذب الدائم الى الحنو والرضى ، نصف نائمة ، نصف مرتاحة ، وقالت له ، مرة أخرى ، وهو يخرج : لا تطفيء النور يا حبيبي .

---

وفي صباح اليوم التالي ، عندما فتح باب غرفته ، فوجيء بها ، نصف مفاجاة ، كانما كان يحس انها هناك . نصف مفاجاة ، لانه يحس دائما انها هناك ، في كل مكان ، في كل زمن ، دائما سيفتح لها بابه ، دائما سيراها في طريقه ، دائما ستمر به ، دائما سيجدها تنتظره ، دائما ستاتي له ، حينما كان ، حضورها معه هذيان ملازم ، دائما على الاستوديو امام مكتبه ، وفي زحمة الشارع ، وعندما ياوي الى نومه القلق ، دائما رنين التليفون منها ، وسيسمع صوتها العذب الذي لا يحب في العالم صوتا اكثر منه او صوتها الجامد الجاف الذي يكرهه وتوجعه صلابته ، يرن التليفون في صمت الليل ، وقبيل الفجر ، رنينا ملحا ، ثابتا ، وتثب دماؤه كلها فرحا ولهفة ، ثم يتيقن فجاة انه كان يسمع الرنين في هذاء حبه ، في الصمت الكامل ، في مرةواحدة تحقق الوهم فجاة ، وفتح بابه ، على غير انتظار فاذا هي امامه حقا ، والمفاجاة تصدم قلبه ، وتشله ، وتفقد العالم حدوده .

رآها الان ، تصعد اليه من الحمام ، وترفع اليه وجهها القمحي الغض ، في نور الصبح الشفاف المشاع ، في صمت السلالم ونظرت اليه نظرت الخجل والخضوع والسعادة والترقب والحنان والعرفان . كانت في قميص قصير من نسيج قطني رقيق ، لا يكاد يصل الى ركبتيها واسع على جسمها اللدن القوي المرتاح . كان النور الخفيف يسقط على عظمتي خديها الناعمين ، من فوق ، ويبرزهما في انحناءتهما الرقيقة وكانت عيناها واسعتين ، لا يرى الان لونهما ، دائما هذه النظرة التي يمتليء بها قلبه . ترتفع اليه من عالم اخر . تحمل على راسها القمر ، وقد نام الثعبان .

كانت قد ربطت شعرها مثل بنات البلد ، بمدورة بيضاء صغيرة . وقدماها المكتنزتان في الشبشب الصغير ، على البساط الاحمر الداكن ، وفي السلالم كلها هدوء الصبح وسكون عميق غريب . واحس مرة اخرى بطعم السعاده . مجرد نظرتها اليه حملت له هذا المذاق النادر الذي لم يعرفه الا قليلا . قال لها : نصف هامس ، وصدره يدر بالحنان : صباح الخير يا حبيبتي .. قال لها ساجيء اليك حالا ، وأومات برأسها ، بابتسامة عذبة ، نادرة ايضا لانها صافية ، صافية لانها ابتسامة من غير ارادة للابتسام ، من غير صنعة ، من غير اتقان .

قالت له ، بعد الظهر : هل تصدمك المدوره ؟ احب ان الم بها شعري ، اجدها عملية وظريفة .. لم لا ؟ ولكن امي تقول لي عندما تراني بها ، ما هذا ؟ عيب ! فاضحك . ما رأيك ؟ عيب ان البسها كبنات البلد قلت لامي وماذا فيها ؟ اليست عملية ومفيدة وسهلة وحلوة ايضا ؟ ما رايك ؟

كانت قطعة النسيج الرقيقة البيضاء على شعرها كأنما اكتسبت شيئا من نفح شعرها وحيويته ودفء جسمها نفسه ، وكان لونها قد بهت قليلا وتغضن قماشها واصبح مطواعا وناعما به طيات حميمة من اثر لفته كثيرا حول خصل شعرها ، وعقدته عليها . فضم رأسها اليه وقبلها . ونسى ، لحظة ما ينطوي عليه سؤالها كله : هل تصدمك المدورة ؟ نسى ، لحظة ، انها تراه دائما في صيغه ثابته . صيغه الاحكام والقواعد الجامدة التي لا بد انه يلزم نفسه بها . هذا الظل في نبرة سؤالها كان يلح عليه ، بعد ذلك ، في موجات التساؤل والاستعادة والالم تصعد به وتهبط بلا توقف ، ولا يصل منها الى شاطيء .

كانا في السيارة ، بعد انتهاء ايامهما السته ، بعد انقضاء صباح مترب خانق . الصباح الاخير الذي غص بالنزاع والغضب والاحباط ، به شمس قاسية ومكتومة يتقطر منها اليوم بالحر والرطوبة . وكانت المسافة طويلة الى المحطة ، طويلة جدا ، ومليئة بفجوات الصمت والحس بالمرارة . وعندما وضع يده على يدها ، كان في يدها الرفض والجمود . ولكنهما كانا يتحدثان ، وان كانت لم تعن كثيرا بان تجيد ممارسة صنعة الحديث . كان يحس قتامة نظرتها الى الايام الكثيرة القادمة التي لا يعرفها احد . قالت له : لم يكن ينبغي ان تأتي معي . كان يجب ان يودع احدنا الاخر في البلد . غير معقول ان تصر على المجيء معي لغاية المحطة ، وانت ستسافر اليوم بعد الظهر ، تسافر لغاية المحطة مرتين في يوم واحد . هل تعرف : أنت قتلت التنين .

فاخذ قليلا ، وقال : ماذا ؟

قالت : قتلت التنين . انت تعرف . في القصص القديمة ، قصص الحب العذري ـ وغير العذري ـ يثبت الفارس حبه بآن يقتل التنين يخرج الى الغابة الموحشة ، بعد ان يعطي حبيبته منديلا ، او شعارا . ويمضي وحده ، يجتاز كل اختبار ، وكل محنة .. ويتحمل المشقة .. حتى يقتل التنين ـ وانت قتلت التنين .. واستدركت بسرعة : وليس هذا تهكما او دعابة ، ايضا .. اعني ما اقول ..

لم يقل لها : أاحتاج ان اثبت حبي ، بعد ؟ لست أريد ان اثبت او انفي شيئا . هذا كله يقع وراء الاثبات والنفي . اتحتاجين ـ انت ـ الى مقاييس وشواهد للاثبات والنفي ؟ ما تزالين ، مرة بعد مرة ـ وتقولين ـ كأنما تتساءلين : كأنما انت على غير يقين .. الا تحسين هذا الذي يتفجر في داخلي ، ليل نهار ؟ الا يبدو له اثر ؟ الا تحسين هذا الذي لم يعد له انفصال ، ابدا ، عن حياتي ؟

زئير اجش تتقوض تحته قضبان الضلوع ، زلزال تتخبط فيه ، وتسقط ، احجار مكسورة وصلبة ، مقطوعة بالظفر والمخلب من حبة القلب ، اليدان باصابعهما المتقبضة تحفر البرك المتقطرة بالدم في جدران صلده قاسية ، وتكشط فلذة الحجر الذي ينبض بعناد وانتظام.

يصرخ في الصمت آآآآآآه ... آآآآآه .. يجار ، ويمسك بفمه المشقوق ، فاغرا ، بملء صوته ، عن صرخته التي لا تنطفيء ، وغير مسموعة ، تملأ كل فجوة ، كل حفيرة ، كل جرح ، كل ثغرة في الارض والسماء .

قال لنفسه : لم اقتل التنين . اعيش معه ، اسنانه مغروزة في قلبي متعانقين ، بلا فراق ابدا ، حتى الموت .

القاهرة

**ادوار الخراط**